

في الأدب المقارن

أثر المجتمع في الأدبين العربي والإنجليزي للأستاذ فخري أبو السعود

—><—

إنما يقصد الأدب فيما ينشئ إلى التعبير عن شعوره وأفكاره لأنه يحس حائراً يدفعه إلى ذلك التعبير، ويشعر براحة وغبطة إذا ما طأوع ذلك الحافز، بيد أنه يتأثر في كل ما يحس ويفكر ويكتب ببيئة الجغرافية ووسطه الاجتماعي وجيله الذي يحيا فيه، لاندحة له مهما بلغ من استقلال الشخصية والاصالة في الابتكار عن التأثير بكل ذلك، بل لاغالي إذا قلنا إن عبقرية الأدب ليست إلا مجموعة مؤلفة من تلك العوامل، والأدب الذي يعتزل مجتمعه لا يتأثر به سائر أدبه إلى الاضمحلال وأن يكون سطحياً، وكلما كان الأدب صادقا حيا كانت صلته بمجتمعه شديدة التوثق، وكان هو مرآة لذلك المجتمع واضحة، وإن لم يمنعه ذلك أن يزخر بآثار الفردية القوية والشخصيات المتميزة

فالأدب يتأثر بالمجتمع تأثراً تلقائياً غير مقصود ولا محسوس أحيانا، ثم هو يتأثر به تأثراً واعياً مقصوداً، وذلك حين ياجأ الأدب عمداً إلى وصف ما يحيط به من أحوال المجتمع، وما يحمد منها وما يذم، ومن يصادفهم ويخالطهم في المجتمع من أفراد ذوي خلائق متباينة، يلذ للأدب أحيانا عرض كل ذلك في أدبه كما تعرض الصور والدمى في المعارض والمتاحف، ويتعبط أي اغتباط بقدرته على تصوير مراحه من تلك الحقائق والسلالات على ما هي عليه، وقد يزيد فيجلوها في مجلى الفكاهة والسخرية، أو يزيد فيندد بما يرى من مساوئ ويدعو إلى الإصلاح ويوضح وسائله، ويؤلف لنفسه مبادئ يرضاها في السياسة والاجتماع والاقتصاد والدين ولم جرا، ولا يعود معبرا عن شعور الفرد بحسب، بل يصبح قائد فكر بين الجماعة كذلك

هكذا يصبح للأدب غرض اجتماعي لإصلاح، ولا ريب أن غرض الأدب الأول هو غرض كل الفنون، من التعبير الصحيح عن صادق الشعور بحقائق الحياة وجمالها، فإذا ما ظهر بجانب ذلك غرض اجتماعي أصبح للأدب غرضان، بيد أنهما

لا يتنافران بل يأتلفان في يد الأدب القدير أحسن اتلاف، ويصوران الحياة أصدق تصوير وأجمله، أما في يد الداعية المحمس لدعوته الاجتماعية دون كبير احتفال بجمال الفن وروعه الأسلوب، فيوشك أن يخرج الأثر المنشأ من عالم الأدب إلى حيز العلم، فيندرج تحت عنوان الاقتصاد أو التربية أو السياسة أو غير ذلك، أما الأدب الصميم فلا غنى له عن الجمال والصبغة الفنية، ووظيفته الكبرى في بيان الشعور وما انصل به من أفكار وتدير أحوال المجتمع ونقد أخلاق بنية لاشك بجمال للأدب رحيب، ومسرح لفن الأدب خصيب، ومهما تغيرت أحوال المجتمعات على تنابع الأجيال، فإن طباع الإنسان المركبة فيه واحدة لا تتغير، ومظاهره من كرم ولؤم ونبل وادعاء وغور ونفاق، ولعل بالمظاهر وتفاخر بالنعمة المحدث، كل هاتيك أمور تتكرر ولا تبدل، وتبدو في شتى الأشكال والأزياء وهي في الصميم سواء، ومن ثم نرى صوراً لها في شتى آداب الأمم على تباعد عصورها ومنازلها: فالمسيو جوردان المحدث النعمة الذي رسمه مولير متعزلاً في أديال ثروته صكاثراً بها في سداجة، هو أحد النوابين، المحدثي النعمة الذين أولع بتصويرهم كتاب الدراما الإنجليزي في أواخر القرن الثامن عشر، وهو هو ذلك المحدث النعمة الذي صدع رأس عيسى بن هشام في المقامه المضيرية بتعداد محتويات بيته وأثاثها ومزايها؛ فالأدب الخافق يظن إلى الخطوط الرئيسية في الصورة الشخصية التي يعني رسمها؛ فإذا ما صورها لم تكن صورة فرد من الأفراد، بل جمات صورة ضرب من الناس في شتى الأمم والعصور

وقد ترك المجتمع آثاره الواضحة على تعاقب العصور في الأدبين العربي والإنجليزي، واختلط أدباهما بتاريخيهما اختلاطاً شديداً، ولا غرو فالأدب من بين العنود أشدها بالحياة اليومية والأحوال الاجتماعية والأحداث السياسية ارتباطاً، وتبينت في ذينك الأدبين سمات الأجيال المتتابعة، وكثرت فيهما النظرات الاجتماعية كما كثرت التأملات الفردية، وقام فيهما من الآثار ما قوامه تدبر أحوال المجتمع ونقد أخلاق أبنائه، بجانب الآثار التي قوامها نظر الأدب في ذات نفسه وبوجه بأشجانه وإطرابه؛ بيد أن الأدب الإنجليزي كان أبعد في تناول الشؤون الاجتماعية مدى، وكان أدباؤه أكثر شغلاً بالدعوة إلى الإصلاح، وإن لم يهملوا التعبير عن خواجلهم الفردية، ولم يقصروا في تصوير شخصياتهم المستقلة

تري طابع العصر الإنجليز في أدب شكسبير ومعاصريه:

المرأة ورتقى علومهم الاجتماع والنفس والتربية ، وخاض الأدباء غمار كل هائيك الحركات والتيارات المتضاربة ، ونقلوا في غضون قصصهم صور هائيك المعارك الفكرية والأحوال المادية ، وفي قصص مريدث ودكنز وبنلوهكسلي وبنيت من آثار كل ذلك ما لا يستقصى ، ومن تلك القصص نستخرج صور لتلك الحركات أوضح مما قد تعرضه التواريخ المنظمة

- وطمت هذه الزعة الاجتماعية الإصلاحية وهذه الصبغة العلمية التحليلية ، في القصة المعاصرة ، فأقطاب القصة والدرامة المعاصرون أمثال شو وهاردي وولتر وجالزوردي ، كلهم متأثرون بالكشف العلمية الحديثة والنظريات الاقتصادية الجديدة ، والأحوال الاجتماعية الراهنة ، ولكل منهم مبادئه ودعوته حتى أصبح الأدباء يختلفون ويعتريهم ، لأعلى المذاهب الأدبية والآراء النقدية الفنية كما كان الشأن فيما مضى ، بل على المذاهب الفكرية والآراء السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعلى هذه المبادئ لا على مبادئ الفن والأدب ينقسمون شعبا ومدارس ، ويسرف بعض الكتاب كبرتراند رسل في التحمس للدعوة الاجتماعية وإطراح الأسلوب الأدبي ، حتى تخرج بعض مؤلفاتهم من عداد كتب الأدب ، ولا تعد إلا في كتب العلم إن كانت لها قيمة هناك

- كان الشعر العربي في الجاهلية حقاً ديوان العرب كما دعوه : كانوا يقولونه في شرح أحوالهم الفردية ، من حب وذكر للديار ومناجاة للطايا ، وفي شرح أمورهم الاجتماعية ، من التمدح بالفرى والتفاخر بالبلاء في الحرب والتوعد بالثأر وإباء الضيم ، يرسلون كل ذلك على السجية فيجىء راتماً بصدفه معجبا برجولة ، ويصورونه فيما اتفق من لفظ وعر وأسلوب شديد ، فظل شعر ذلك العصر مثلاً صادقا له رغم عبث العائنين به ، بل لعله كان أهم مصادر تاريخ ذلك العهد حين دون تاريخه ، فقد ظل المؤرخون يذكرون ما يدكرون من حوادث وحقائق ويتبعونها آيات الشعر مستشهدين

وظهر أثر عهد الاستقرار والثروة والتجاس في ظل الأمويين في غزليات ابن أبي ربيعة وجمل واضرابهما ، ومفاخرات جرير والفرزدق وأشياءهما ، ثم ظهر أثر الإفراط في تلك الثروة والفراغ والإسراف في اجتماع لذات الحضارة ، في شعر بشار وأبي نواس وأمثالهما ، ثم كان العهد التالي بدء التدهور والانحطاط المادى والخلقى : فهوت مكانة المرأة إلى حضيض من القهر والازدراء والجهالة ، ونفت الرشوة والمحابة والمصادرة بين الحكام ، وكثر

فهر عهد فتوح ومغامرات ، فامتلات رواياته التمثيلية بذكر الشجعان والأسفار والحماسة الوطنية وتاريخ إنجلترا ، وهو عصر لم تبد الثقافة بعد أو هام سواد أبنائه ، فسر حياته تعجيد كراشياطين والسحرة والأشباح والعرافة والتطير ، ولم تكن نفوس أبنائه ذلك العصر قد رقت ولا أدركهم قد صقلت ، ولذلك تكثر في رواياته المذابح والمبارزات وسفك الدماء ؛ وكان عهد تعصب ديني ، ومن ثم يسخر أديبوه من أبناء النحل الأخرى كاليهود ، ولم يكن الحكم الدستوري قد توطد بعد ، وما تزال للملك اليد الطولى والكلمة العليا في السياسة الداخلية والخارجية ، ومن ثم ينسج شكسبير لنفسه في روايه هنرى الرابع وغيرها نظرية سياسية قوامها الملكية المستبدة العادلة ، ويعدها أساس نظام الكون

ونرى أثر عهد الإصلاح الدينى في إنجلترا في أدب عهد المطهرين : إذ خفت صوت الأدب وغيره من الفنون التي لا يطمئن إليها عادة المتشددون من المتدينين ، وانصف الأديان الكيبران اللدان ظهرا إذ ذاك - ملثرون وبنيات - بالاهتمام بالشئون الدينية والتأثر بالكتاب المقدس موضوعا وأسلوبا ؛ ونرى أثر عصر المجنون الذى تلا ذلك في مسرحياته المملوءة بالسقاط ؛ حتى إذا ما أشرق العصر التالى وقد اطمأنت النظم الدستورية وانتشرت الثقافة والثروة في جمهور الشعب أوغل الأدب في تناول الشئون الاجتماعية ، ولم ينع بالاشكال الموجودة أصلا ، فانخذ لنفسه شكلا ادبيا هو الائق لتصوير المجتمع ونفده وهو القصة ؛ وفي قصة القرن الثامن عشر وفي شعره يتجلى ما كان يسود مجتمع ذلك العهد من تألق وتصنع ، وحرص على تعلم اللغات وممارسة بعض الفنون ، ويجرى ذكر خروج الارستقراط للصيد بخليلهم وكلابهم ، ويبدو مع ذلك ما كان يتخلل المجتمع من نفاق ورذيلة وإدمان للشراب وإفراط في الطعام وما كان يعصف بالطرق العامة من عبث الأشقياء اتخذت القصة وسيلة لوصف المجتمع ، وقد أدت غرضها ذاك خير أداء ، وكيف لا تؤديه والقصة في يد الأديب الخفيف ليست إلا قطعة من المجتمع الحى المتحرك منقولة على القرطاس ؟ قطعة من المجتمع طوع بنان الأديب يؤلفها كيف شاء ويرسم بها من الأشخاص من شاء ويبرز بها من الآراء ما يختار ، فلا غرو ازدادت القصة الاجتماعية رقيا وذيوغا في القرن التالى ، ازدياد المبادئ الديمقراطية انتشارا أعقب الثورة الفرنسية ، وانتشار التعليم العام ، وتعبه مشاكل المجتمع بظهور الصناعة الكبيرة ، وانتشار المذاهب الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة كالاشتراكية والشيوعية ، ونزاع الرأسماليين والعمال ، ونهضة

هذا السنيدي لافضل ولا حسب يكلم الفيل تصعيداً وتصويماً كل هذه الآثار الاجتماعية ما جل منها وما ضؤل، واضحة في الأدب العربي شعره ونثره؛ يسد أن أغلبها قد جاء في الأدب عفا أو عرضاً، ولم يقصد لذاته ولم تنظم القصيدة أو لم يصنف الكتاب عمداً لوصفه وبيانه، بله نقده وإصلاحه، فأكثر أدباء العربية بعد الاسلام وبعد استتباب الملك كانوا عن مجتمعهم في شغل، قد يرون من أموره ما لا يرضيهم، وقد تكون لهم آراء في السياسة ومذاهب في الدين لا ترضى أصحاب السلطان، ولكنهم كانوا في أغلب الأحوال يكتفون مثل تلك الآراء والنظريات، وكيف يبوحدون بنقدهم وهم بين رجااء لنوال السلطان وإشفاق من غضبه؟ إن النقد الصريح الحر والنظر الاجتماعي الصادق لا يترعرعان بين ذهب المعز وسيفه، إنما كان يجهر الأدباء بالنقد والمعارضة في الجاهلية وصدر من الاسلام، وهما عهد الحرية واستقلال الفرد؛ فلما توطدت الملكية المطلقة خفت أصوات الأدباء وفطعت السنهم. وكان شعراء الخوارج الكثيرون الذين أطاح الأمويون رؤوسهم عبرة لسوأم من الشعراء وقد مدح سريف الشاعر بعض العلويين اثنا عشر فواده المنصور، وتار المتني في صباه يبنني إصلاح الأحوال المتعاقبة فرج به في السجن.

فالملكية المطلقة قد فرضت على الشعب ألا يراجعها في أمر، وانقلبت بالأمة العربية بذلك من النقيض إلى النقيض. كان العرب في جاهليتهم مسرفين في الاستقلال والفردية، فصاروا في ظل الملكية مسرفين في الخضوع والاستسلام، وفرضت تلك الملكية على الأدباء أن يمشوا عالة عليها وعلى المجتمع، لا يشاركون الشعب آماله وأعماله، ولا يفقدون أفكاره وحركاته، فلم يكن المجال متسعاً أمام الأديب العربي، كما كان متسعاً أمام الأديب الانجليزي، لوصف المجتمع ونقد أحواله والدعوة إلى إصلاحه. فإن هو فعل ذلك عرض نفسه للنهكة ولم يعد المجتمع قتيلاً. إنما يؤمل الأديب الانجليزي أن يفيد مجتمعه بآرائه، لأنه يخاطب بآثاره الادبية الرأي العام في بلاده؛ الذي هو فوق الحكومة يملئ عليها إرادته؛ أما في ظل الملكية المطلقة في الدولة الاسلامية، فلم يك هناك رأي عام، وكان رأي الحكومة الاهلي لذلك عاش أدباء العربية طالبي فضل، يمدحون الامير ويعيشون من عطايه، وهي السيل الى ألجى إليها المتني بعد غنة سجنه، وعاش بها حياته على مضض بأكباً مما هو به محسود، واستوزروا

الفقر من جراء ذلك وادغاه الفقر والتسول والاحتياال باسم الدين والطب والأدب والعلم، وذاع الفساد وفاحش القول وبنتدل التندر يندو أثر كل هذا في تنديد المعري بالمرأة وسخر غيره من الشعراء منها، وتلك الأقاصيص التي افتن الجاحظ والاصفهانى وابن دريد في جمعها وتأليفها، عن عبث النساء وغدرهن وخيانة الزوجات ووجوب تشديد الحجاب عليهن، فكان ابن دريد مثلاً يبتدع الحكايات يفسر بها الأمثال السائرة فيتخذ ذلك الضرب من حديث النساء مادة لها. وبدا أثر تلك الحال السالف شرحها أيضاً في مقامات بديع الزمان والحريري، حيث لا يزال بطل المقامات يتنقل من تسول إلى احتياال إلى خديعة، ولا يزال الحارث ابن همام يؤكد حرصه في أسفاره إذا ما هبط بلداً أن يتعرف إلى واليه أوقاضيه أو بعض ذوى الكلمة فيه، يتق بمعرفته ظلم الغاشمين والمرتشين من عمال الحكومة، ويتحاشى غوائل الارهاق والمصادرة والسجن. ويقف كاتباً المقامات المذكورة صفحات طويلة على استعراض ضروب الشنائم والبذاء يتقاذها أشخاص الاقصوة. ويقول ابن الرومي واصفاً حال الموظفين والتجار وأضرابهم:

أتراني دون الآلى بلغوا الآ مال من شرطة ومن كتاب؟ أصبحوا ذاهلين عن شجن الناس وإن كان حبلهم ذا اضطراب وتجار مثل البهائم فازوا بالمتى في النفوس والآجاب هذه لمحة خاطفة إلى آثار أحوال المجتمع المتعاقبة في الأدب العربي، إذ كان من المحال تقصى تلك الآثار الاجتماعية التي تنعكس في الأدب، مادته وأشكاله ومذاهبه وألفاظه، وما يزال الناظر في مخلفات الشعراء والكتاب يطلع من آثار مجتمعهم على جديد. وفي نوادر أبي نواس وفكاهات الجاحظ وحكايات الاصفهانى دلائل متفرقة على شتى نواحي الحياة الاجتماعية في عصرهم. وإذا قرأنا في مقامات البديع مثلاً أن أبا الفتح اضطلع فيما اضطلع من حيل لاقتناص الدراهم والدنانير حرقة القراءة، فرأه عيسى بن هشام مرة وسط جمع من الغوغاء يضحكهم بالأعيب قرودة، علمنا أن تلك الحرقة التي ما تزال مشاهدة في بعض البلدان حتى عصرنا هذا بعد انتشار حدائق الحيوان، كانت تمارس منذ تلك العهود. وكذلك نعلم أن أبناء السند وفدوا فيمن وفدوا من أبناء الشعوب إلى مقر الخلافة يبتغون الرزق تارة بالصيرفة إذ يقول الجاحظ إنه لا يكاد يوجد ذو تجارة رابحة إلا وصاحب كيسه سنيدي؛ وتارة باضحاك العامة — شأن أبي الفتح الاسكندري — بالأعيب الفيل، وذلك إذ يقول دعبل:

لبعض مذاهب السياسة والاقتصاد في المصور الحديثة ؛ ومن ذلك اعتباره الحكام خدام الرعية ، ونقته على عدم تساوى توزيع الثروة ، وذلك قوله من لزمياته :

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستباحوا حقها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها
وقوله :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحت فقير معرى أو أمير متوج
وقد يرزق المجرد أقات أمة ويحرم قوتا واحد وهو أحوج
على أن الشعر ليس بأصلح المجالات للنقد الاجتماعى والاصلاح
الشعبى ، وإنما مجال ذلك النثر الذى هو أكثر شيوعا وأقرب إلى
متناول القارئ ، والذى هو أرحب صدرا بالشرح والتفصيل
والاسهاب ؛ والمقالة والقصة فرسا رهان هذا المضمار ، ولكن
النثر العربى لم ينضج بهذا العبء ، ولم يزد أن خطا الخطوة الاولى
في هذا السيل في كتابات الجاحظ ومقامات البديع ؛ وقد
جاءت هذه الخطوة متأخرة . ولما جاء الجيل التالى لم تتبعها
خطوة أخرى ، بل أعقبها تقهقر إلى الوراء ، فلم تطور المقامة إلى
قصة فنية اجتماعية تدرس المجتمع وتقوده في سيل الاصلاح ، بل
تحولت في يد الحريرى وغيره إلى معارض للألفاظ المزركشة
والالغاز المعماة والحيل الملفقة ، فقد كانت الامة في طريقها إلى
الاحلال ، والاذهان في انحدارها إلى الخرد ، والحكام يزدادون على
مرافق الامة وطاة ، والادب يتقلص رويداً رويداً ، ويهجر باب
الحياة إلى قشور الالفاظ .

فالادبان العربى والانجليزى قد تأثرا في مختلف العصور تأثرا
كبيرا بأحوال مجتمعيهما ، وهو أمر لم يكن منه بد ، يد أن الادب
الانجليزى كان أكثر بالمجتمع تأثرا وأكثر فيه تأثيرا ، وأشد
تشابكا وتفاعلا معه ، لما أحاط به من ظروف مساعدة ، مرجعها
سيادة الحكم الديمقراطي وانتشار حرية القول والعمل وقوة الرأى
العام ؛ أما الادب العربى فلبوغه أوج ازدهاره في ظل الملكية
المطلقة ، قد كاد يقتصر تأثيره بالمجتمع وتأثيره فيه ، على ما جاء
عرضا غير مقصود ، وما تم بحكم الظروف وطبائع الأشياء ، وكان
تناول أدبائه للشؤون مجتمعيهم رفقا محدودا ، وفيما عدا ذلك كان
كل منهم عاكفا على وصف خطراته وأشجانه وصوباته ، مولما
بذم أعدائه ومساجلة صحابته ، إلى غير ذلك من الشؤون الفردية

ففى امر السعوى

للأمراء وكتبوا وعملوا لهم ، وطلبوا بذلك النجاح الشخصى
لأنفسهم لا النفع الشامل لمجتمعهم . أما أدباء الانجليزية فقل منهم
من عاش في ركاب الملوك ومن فضلهم على هذا النحو ، وكان
أكثرهم إما مثريين غانين عن العمل لكسب القوت متوفرين على
فهم وحده ، وأما مساهمين في الحياة العملية بجانب الحياة الفنية ،
فكان منهم من ضربوا بسهم في السياسة والدين والحرب
والكشف الجغرافى وكبار وظائف الدولة ، ومن أولئك فيلب
سدنى ويكون ورالى وملتون وبنيان وأديسون ويرون ، وكان
أكثرهم في صف الشعب وجانب الحرية

بل كان من أدباء الانجليز من عاف الاجتماع الإنسانى قاطبة ،
وتقم على أنظمة الملكية والكنيسة ، وكره التقاليد والاعراف
السائدة ، وحاول إنشاء مجتمع جديد تسوده البساطة والمساواة
ومن هؤلاء شعراء عهد الثورة الفرنسية ، كالكتاب الفرنسيون
الذين مهدوا لتلك الثورة أمثال فلتير وروسو اكتفوا بالعمل
النظري وتركوا التنفيذ لغيرهم ؛ أما معاصروهم ومن جاءوا بعدهم
من أدباء الانجليز ، لحاول بعضهم تنفيذ مبادئهم بأنفسهم ، ولهذا
الغرض انتقل بركللى إلى أمريكا وشلى إلى أيرلندة ، يريد كل منهما
إنشاء مدينته الفاضلة ، وإن كانا قد منيا بالفشل لضخامة المشروع .
وعاضد وردزورث الثورة الفرنسية بقوة لمبادئها بمبادئها المعروفة
حتى تقم على دولته إعلانها الحرب على فرنسا الثائرة ، وكاد ينظم
في أحد أحزاب الثورة ، ويركب تيارها الخطر ، واستشهد يرون
في حرب استقلال اليونان .

ولقد أبدى بعض أدباء العربية في عهد نهض الحضارة والثقافة
والادب شغفا بتتبع أحوال الناس ومعايشهم وعاداتهم وأخلاقيهم
وظهر ذلك في كتب الجاحظ ؛ على أنه كان يروى الأشياء على
علائها ويخلطها بفكاهاته ؛ وفي مقامات البديع ، ولم يكن أيضاً
يزيد على التصيير المجرد ، فإذا ما صرح بسخطه على بعض
الأحوال والاحكام والأنظمة ، فتصريحاً سريماً فيه تسليم واقتناع
بعدم جدوى محاولة الاصلاح وعدم إمكان أحسن مما كان .
وظهر ذلك الميل أيضاً في شعر ابن الرومى ، الذى صور كثيرا من
الشخصيات الفكاهية ، على أنه كان يتناولها من ناحية الفردية
وينحى عادة على أعدائه الشخصيين ؛ وظهر نفس ذلك الميل إلى
تتبع أحوال المجتمع في شعر المعرى خاصة ، وذلك من الأبواب
التي تفردها أو كاد بين أدباء العربية ، وسبق في التصريح بها
عصره ، وله في ذلك أبيات رائعة ليست إلا خلاصة موجزة